الفصل الثامن

وصفة لمنح الحب وتلقيه

(١)

لا يرغب كل الناس فيما هم فى حاجة إليه. وينطبق هذا بالذات على الحب، فكثير من الأشخاص الناجحين يظنون أنهم ليسوا فى حاجة إلى الحب. ولكن مهما كان إنكاره للحب قويًّا وعنيفًا فهو مخطئ. فكل واحد فى حاجة إلى أن يربط نفسه وينتمى بطريقة خلاّقة ودودة إلى شخص ما. فكل واحد فى حاجة إلى الحب والعطف.

والحب يمكن الحصول عليه. وبالتأكيد فقد خلق الناس للحب كما خلقوا للمشى أو للبصر أو للسمع. وإن أى شخص يرفض الحب فإنه بالتأكيد يعطل نفسه ويفجرها كما يفعل المريض بالهستيريا حين يرفض — بوعى أو بغير وعى — أن يمشى أو يسمع أو يرى.

وإنى لآمل أن أستطيع أن أصف الطرق لمنح الحب بسخاء وتلقى الحب بلطف وتكرم. ولن يفوت الأوان أبدًا فى أن يصبح المرء مدركًا لحاجته للحب وأن يتعلم كيف يعطيه وكيف يجده.

فما هو الحب؟ وهل يمكن تحديد مفهوم علاقة دقيقة كهذه؟ فالناس تختلف عن بعضها وتتباين وارتباطاتهم وعلاقاتهم الوثيقة تكون فطرية مكنونة السر لدرجة يتساءل معها المرء إن كان من الممكن أن يخرج تعريفًا عامًّا لهذه الكلمة التى يكثر استعمالها وغالبًا ما يساء فهمها.

ولكنى أعتقد أننى أستطيع تعريف الحب وتوضيحه. وقبل أن أفعل ذلك أحب أن أقول كلمة عن التعاريف نفسها.

فعندما كنت طالبًا فى جامعة ميتشجان درست مقررًا فى علم الصحة على يد الدكتور فوجان. فكانت أول جملة فى أول محاضرة له إلينا هى تعريفه لكلمة «الصحة» وقد عرّفها فوجان بقوله: «الصحة هى شىء يدخل ماشيًا إلى مكتب الخنازيرى فوجان».

وكان الدكتور فوجان عميدًا لكلية الطب فى جامعة ميتشجان. ونظرًا لشهرة تجاربه على الحيوانات المسماة بخنازير غينيا فقد لُقب بالخنازيرى بواسطة الآلاف من طلبة الطب الذين أتيح لهم أن يعرفوه ويحترموه وأخيرًا يعشقوه.

وفى الوقت الذى سمعت فيه التعريف فكرت على طريقة طلبة الطب المفرطة فى الجدية أن هذه عبارة عن طريقة للتخلص من تعريف موضوع هام كعلم الصحة. ولم يكن الأمر بالنسبة لى موضوع مرح ولكنى شعرت أن تعريف الدكتور فوجان لا يدل على تعريف أى شىء بالمرة. ولكنى كنت مخطئًا فإن تعريفه كان تعريفًا كاملاً. لأننى بعد ذلك عندما كنت أقوم بتدريس علم الاجتماع فى نفس الجامعة، اكتشفت أن أى نشاط إنسانى لا يمكن تعريفه إلا فى اصطلاح البشر الذين يرتبطون بممارسته.

ولذلك فعندما قمت بتعريف علم الاجتماع لطلبتى فعلت بالضبط ما فعله قبلا الدكتور فوجان. وقلت لهم: إن علم الاجتماع يتكون من آراء وأفكار واتجاهات نفسية لأولئك الذين يَدْرِسُونه ويُدَرسونَه. أى تعريف دائرى؟ غاية فى ذلك وهذه الدائرة تصل فى اتساعها لتشمل الاتحاد الأمريكى لعلماء الاجتماع وغيرهم ممن لهم مساس بها. وبالطبع فإن تعريفى يشمل علاقة الأعضاء بالنسبة لبعض وبالنسبة للمجتمع الأعم الذين هم جزء منه.

وكيف يمكنك تعريف هندسة السيارات إلا بأنها الأفكار والآراء والاتجاهات النفسية لأولئك الذين ينتمون للجمعية الأمريكية لهندسة السيارات فهذا تعريف عملى إجرائى، وهو يسمح بالقياس والمراجعة والإثبات.

ولهذا فأنا أكرر: إن كل نشاط إنسانى لا يمكن تعريفه إلا فى اصطلاح البشر الذين يرتبطون بممارسة هذا النشاط.

وبالمثل مع الحب.

○ فالحب يجب أن يعرف فى اصطلاحات الأفكار والآراء والاتجاهات النفسية للناس الذين يمارسون الحب. فلكى نعرف معنى الحب يجب أن نذهب لأولئك الذين يحب أحدهم الآخر، ونلاحظ طرائقهم، ونفهم آراءهم ونشاركهم فى عواطفهم ونشعر باتجاهاتهم النفسية. ويجب أن يكون مدرسونا فى الحب من أولئك الناس العاديين السعداء الذين تعلموا كيف يمنحون الحب ويتلقونه.

إن هذا موضوع يتصل بالسلالة البشرية ويستطيع كل إنسان أن يشارك فيه. وفى مقدورنا أن نلاحظ حياة مجتمع الأحبة السعيد. وبذلك نتعلم كيف نعيش ونتعلم ونحب لأنفسنا.

القاعدة رقم ١

لاحظ وسائل الناجحين وطرائقهم ثم اذهب وافعل مثلهم (فهذا لا ينطبق على الحب فقط بل على كل أنواع نشاط البشر).

(٢)

وأول شيء نلاحظه على أولئك الذين أتقنوا فن الحب هو أنهم متزوجون، إنهم يعيشون فى نطاق المشروعية والقانون، وعادة — وإن لم يكن دائمًا — مع نزوع إلى الحفاوة بالدين.

فالزواج يتكفل بإزالة الغموض والالتباس عن علاقة الحب. إنه يخلق الأمن وشعورًا بالاستقرار والبقاء والدوام. ويعلم الطرفين كليهما حدودهما بالضبط.

وفى نهاية القرن الماضى، اعتاد القرويون من بلدة جرينتش أن يقولوا: «بما أننا متزوجون فى أعين الله فماذا يستطيع الهراء الذى يقوله قاضى الصلح أو القسيس أن يضيفه إلى حبنا».

ولا أدرى كيف علموا ما كانت تراه عيون الله. ربما درسوا بالمراسلة مقررًا فى البصريات الدينية. ولكن الحقيقة الوحيدة التى استراحوا فى رفض مجابهتها هى أن إضفاء المشروعية القانونية على علاقاتهم وارتباطهم، كان سيؤدى إلى الالتزام بحقوق وواجبات على الطرفين. فالحقيقة هى أن الذين يتوارون اختفاء وتمارضًا من الحياة يريدون أن يتجنبوا المسئوليات التى تصاحب دائمًا الحب الحقيقى.

إن فى مقدورك أن تزن الحب الحقيقى بوزن المطالب التى يفرضها وبخفة هذا الوزن بالنسبة للمحب. والمحبون السعداء يحملون مسئولياتهم دون عناء وبفخر وحبور مثل تلك الريشات الملونة الموضوعة فى قبعاتهم. وهم يشعرون أن مسئوليات الزواج هى فرصة متاحة وليست عبئًا ثقيلا. ومسئوليتهم عن إسعاد الطرف الآخر تجعلهم يشعرون بأنهم أحياء وأن لهم أهمية.

والحب المعقود برباط الزوجية يعنى الاعتماد المتبادل. والمحبون يجدون متعة ويسرًا فى قبول علاقة وارتباط يعينهم ويساعدهم على أن يمنحوا ويتلقوا المودة والرحمة وتقدير الظروف والمعاونة العاطفية والمادية التى لا تشوبها الأنانية.

وأستطيع دائمًا أن أتنبأ بتحسن مرضاى بملاحظة التحسن فى علاقاتهم الزوجية. وكان واحد من مرضاى يعانى من حاجة إلى التواكل والتعلق الشديد أحبطت بشكل مريع وهو طفل. وكان يشعر بهذه الحاجة كصداع دائم الوجود معه وهو يأكل أو يعمل أو يمشى أو يتكلم حتى وهو ينام. ولكى يكافحها ناضل فى أن يجعل نفسه مفرطًا فى الاستقلال وعدم الاعتماد على أحد.

إن إنسانًا لا يستطيع أن يسير فى الحياة دون اعتماد على غيره من البشر وحتى لو كان لدى الإنسان مليون جنيه من النقود الحاضرة فهو يعتمد على صاحب البنك لكى يوفر له

حفظها أو على جهاز الشرطة إن كان من الغباء بحيث يخفى نقوده فى حشية السرير، وخارج نطاق هذه الخدمات فهو معتمد على جهاز اقتصادى معقد ليجعل لهذه المليون أى معنى من ناحية القدرة الشرائية. فليس فى الدنيا غنى تام الاستقلال عن البشر.

ولم يكن مريضى مليونيرًا، وإنما كان يدير عملا خاصًّا به بالطبع وحتى مع ذلك كان معتمدًا على رفاقه وموظفيه لكى يسير عمله. ولكن أى إحساس باعتماده على أحد — وهو شعور طبيعى بالنسبة لغالبيتنا — كان بالنسبة إليه شيئًا يجعله يحس بالخطر وعدم الأمن وتوتر الأعصاب.

وقد التقى بفتاة كان لها كل ما يحلم به. وكانت هى تنظر إليه نفس النظرة. ولكنه كان على درجة من الخوف من الاعتماد عليها ومن الخوف من مسئوليات الزواج لدرجة أن الصراع بين رغباته الطبيعية الصحيحة السليمة وبين كفاحه العصابى لأن يكون فى أعلى درجات الاستقلال. أوقعه فى حالة من الذعر والهلع.

وقد احتاج الأمر إلى علاج نفسى طويل لمساعدته على التغلب على مطلبه العصابى للاتكال، وخوفه غير المعقول من المسئولية، وكفاحه غير المعقول للاستقلال الزائد. ولكنه أخيرًا كتب جواز مروره إلى المجتمع السعيد للمحبين المتزوجين، وأثبتت العضوية فى هذا المجتمع أنها علاج بذاته.

وليس معنى هذا أن على كل فرد أن يتزوج لكى يتخلص من اضطراب عقلى. بل على العكس. فالإنسان يجب أن يتزوج ليزكى عن ثرائه الروحى لا لكى يستنزف غيره ليرضى حاجة عصابية إلى الطمأنينة والأمن.

ولنعد الآن إلى مجتمعنا السعيد من المحبين المتزوجين. كيف يختارون قرينهم؟ هل بالبرود والتقدير والحساب أو بالاندفاع والنزوات؟ وهل الذى يتحكم فيهم ويسيطر عليهم الرأس أو القلب؟

والجواب: الاثنان. فقد وجدت بالخبرة أنهم ليسوا على دراية مفرطة بسير العملية أو النسق الذى يختارون به القرين، ولكن نجاحهم يمكن قياسه وتقديره بانسجامهم. وبالدراسة الدقيقة استطعت أن أصل إلى معادلة بسيطة توضح طريقة الاندفاع الذكية التى يدعم فيها الاتزان فى الحكم وسلامة النظر إلى الأشياء. مطالب العاطفة القوية وبذلك تؤدى إلى زواج ناجح سعيد. وإليك:

القاعدة رقم ٢

لتحقيق الانسجام وسأشرحها بالتفصيل

هو (للزوج)	وهى (للزوجة)
(١) ما الذى أنتظره وأتوقعه من نفسى؟	(٢) ما الذى أنتظره من زوجى؟
(٣) ما الذى أتوقعه من زوجتى؟	(٤) ما الذى أتوقعه من نفسى؟
(٥) ما الذى أتوقعه من الدنيا والعالم؟	(٦) ما الذى أتوقعه من الدنيا والعالم؟

ولتحقيق الانسجام يجب أن تتضافر الأجوبة. ولنأخذ السؤال رقم ١، فكيف يمكن للإنسان الإجابة عنه؟

فأنت تعلم ما أنت عليه ما تفعل وما تحب أن تفعل. فهل تحب الاستقرار فى عمل أو أنك تمله بسرعة وفيك استعداد لتغيير العمل كثيرًا؟ هل تحب أن تتقدم من الناحية المالية أو أنك راض بما أنت فيه؟ وهل تحب السباحة أو المشى الطويل فى الجبال أو رياضة التزحلق أو قضاء العطلات فى الخلاء أو تفضل عليها القراءة وسماع الموسيقى؟ وفى يوم العطلة هل تفضل الاستيقاظ المتأخر والبقاء بملابس المنزل على الاستيقاظ المبكر لتذهب بسيارتك فى نزهة إلى الريف؟ وهل الأطفال الصغار يزعجونك أو أنك تؤثر اللعب معهم؟ هل تحب الطهى وأداء الأعمال المنزلية أو أن الأفضل لك أن تملأ بطنك بالطعام وتقضى أمسياتك فى الحفلات الموسيقية والمسارح والمعارض الفنية؟ هل أنت مهمل أو منظم فى الطريقة التى تنفق بها نقودك؟ فمثل هذه الأسئلة كفيلة بالكشف لك عن نظامك فى تقدير قيم الأشياء وهو نظام لا تتوقع أن يغيره الزواج.

فنظام تقدير القيم والعادات اليومية للراغبين فى الاقتران يجب أن تكون متوافقة إلى أبعد حد ممكن. فإن لم تكن فهناك الاحتكاك المستمر وخيبة السعى والفشل وتسقط الأخطاء. فبعثرة رماد التبغ على الأرض مثلا ليس عيبًا أخلاقيًا كبيرًا أو إثمًا أخلاقيًا. ولكنه كاف لإثارة الغضب والهياج عند الشخص المنظم المرتب. وإذا كانت المرأة من النوع الذى يعشق الرياضة فى الخلاء وزوجها من النوع القاعد فإنها ستتمنى لو أنها فكرت مرتين قبل أن تبدى موافقتها على الزواج. فأنت ترى أنه من الخطأ أن تنتظر شيئًا من إنسان لا يحب العطاء فى يسر. إنها الطريقة المؤكدة لقتل الحب! وحتى الصداقة. لهذا كان من الضرورى جدًا أنه لابدّ لتحقيق الانسجام – من العلم المسبق بأن ما تنتظره من قرينك القادم هو بالضبط ما يتوقعه ذلك القرين من نفسه أو من نفسها.

وإذا نجحت فى التغرير بقرينك المقبل على، يعتقد أنك بخلاف ما أنت عليه فسيكتشف هو أو هى الحقيقة بعد الزواج. وهنا يحل الشيطان ومصاريف المحامى الذى يطلب الطلاق. وما سيطلبه المحامى هو الجزاء الأدبى وهو جزاء يمكن دفعه بالنقود. أما ما يتقاضاه الشيطان من جعل الإنسان يعيش فى جحيم على الأرض فهذا ما لا يمكن حسابه أو تقديره.

والآن فلنحاول الإجابة على السؤال الثانى: ماذا تنتظرين من زوجك؟

وأنا أعرف كثيرًا من الزيجات غير السعيدات يكون سبب الخلاف فيها هو شكل الزوج أو منظره. مسألة بسيطة! أتفه من أن تكون موضع التفكير والاعتبار الجاد! ممكن بالنسبة للبعض. ولكن إذا فكرت فى أن أحد التفاصيل المعمارية الدقيقة قد تكون سببًا فى عدم رضاء شخص عن بيته فربما جعلك هذا لا تنظر إلى مسألة المظهر الجسمانى بهذه الاستهانة. أيتها السيدات، إذا كنتن تعجبن فقط بأولئك الرجال ممشوقى القد، الطوال السمر الوسام فلا تفكرن بأنكن ستتغاضين عن مثار إعجابكن بزواجكن برجل قصير بدين أشقر. إن الحب يعتمد على الخلط الدقيق لكثير من العناصر حتى ينتج مركبًا دقيق التوازن. إنه أشق من عمل كعكة خفيفة دقيقة. والانتباه للتفاصيل فى هذه الناحية كما فى غيرها من الشئون المتصلة بالحياة هو الضمان الوحيد للنجاح.

وهناك شىء من التجاذب الجسدى بين الجنسين. وهو عامل مهم فى الانسجام. أما لماذا يحب رجل امرأة طويلة نحيفة ويحتقر القصيرة البدينة فى حين أن ذوق غيره يكون بعكسه تمامًا فهذا يعتبر لغزًا بالنسبة لى. وقد كان هناك الكثير من الافتراضات التى لا تجدى بخصوص هذا الموضوع، وليس لدى رغبة فى إضافة شىء إليها. وكل ما يمكننى قوله هو التباين، إن هذا التباين فى الاختيار بين فرد وآخر يبدو أنه يتبلور أثناء فترة المراهقة وأنها أساس الحب. ولحسن الحظ أن تحليل هذه الاختلافات لا تدعو إليه الحاجة أو الرغبة. ويكفى إدراك وجودها والإذعان لها. وإذا لم يكن فى مقدورك أن ترى ما يراه أحسن أصدقائك فى زوجته فخير لك ألا تحاول. والشىء المهم أن تعلم ما الذى يجتذبك. وأهم من ذلك ألا ترضى بأقل منه. إنك لست مرغمًا على ذلك وإذا أرغمت فستعيش عمرك فى حسرات.

ولقد قالت لى زوجة طموح تحطمت آمالها: «إن لزوجى الكثير من المواهب ولكن ليس لديه دوافع. ولا أطماع. إن طبيعته خيرة إلى درجة بعيدة حتى إنى أحتاج لإثارة معركة معه لكى أدفعه للإفصاح عما يريد. إنه لا يظهر أى تحمس لأى شىء أقترحه. إن كل ما يفعله هو أن يرضى به وهذا شىء يجنن».

إنها كانت تعرف ما عليه زوجها حين تزوجته ولكنها ظنت فى ذلك الوقت أنها قادرة على تغييره. ولقد أخبرتها أنها لا تستطيع تغييره. كما أنى فى نفس الوقت أشرت إلى أنه لا يوجد قانون يمنعها من تنمية مواهبها الخاصة والاستفادة من اندفاعها وحماسها فى جنى ثمارها المادية.

وأنتن أيتها الفتيات، قبل أن توافقن على لبس خاتم الخطوبة تأكدن من علمكن بالضبط لما تتوقعنه وتنتظرنه من الزوج المقبل. وتأكدن من معرفتكن لما ينتظره هو من نفسه. فمثلا إذا كنتن تنتظرن أن يكون لكن خالصًا. فى حين ينتظر هو من نفسه أن يعاون أبويه ماديًا وعاطفيًا فهناك أمواج عاتية فى مستقبل زواجك.

وأنا أعترف بأنه لا صبر على أولئك الذين يلومون القرين على عدم اختلافه عما هو عليه. وقد جلب التعاسة على إحدى مريضاتى زوجها الذى يلومها على نحافتها فى حين أنها فى الواقع امرأة جميلة الخلْق والخُلق جميلة فى الجسم والروح، ولكن عيونه كانت على زوجة جاره البدينة، فهذا الزوج الغبى كان يعلم قبل الزواج حالة زوجته الجسمية. ألا يعلم أنه بإثارته عدم الرضا عن زوجته فإنما يضاعف عوامل عدم الرضا عنده؟!

وأنا مؤمن بقوة المثل القائل بإغلاق باب الحظيرة قبل أن يسرق الحصان (الحديث الشريف يقول: اعقلها وتوكل). فقبل الزواج يجب على كل طرف من الطرفين أن يكتب قائمة بما يتطلبه فى رفيقه الآخر ويقدمها له. وعلى كليهما أن يكتبا المميزات الجسمية والعقلية والطباع وغيرها من الميزات التى تهمه. فهذه أحسن طريقة لضمان الانسجام.

وماذا عن السؤالين الثالث والرابع؟

فقبل الإقبال على الزواج يجب على الرجل أن يعرف ما ينتظر من الزوجة وماذا تنتظر زوجته المقبلة منه. وبالمثل فإن على الفتاة أن تستوثق من الإجابة عن هذه الأسئلة. وحينما يفترض الزوجان أنهما يعرفان كل الإجابات لكنهما يهملان فى التحقق من افتراضاتهما فإنهما يمهدان السبيل للشقاق.

ولكن ألا يتغير الناس عندما يكبرون فى السن؟ نعم وبالطبع. وإذا كان زواجهم يبدأ بانسجام حقيقى فسيتغير الاثنان إلى الأحسن. وبذلك فإن زواجهما سينمو وينضج ويزدهر مع كل سنة تزيد فى عمره.

والآن لننظر إلى السؤالين ٥، ٦. فماذا ينتظر كل منهما من العالم؟ وما هى الاتجاهات العامة لكل منهما إزاء الناس والأحداث؟

فالانسجام يحتاج إلى أن الطرفين المعنيين يكون لهما نفس النظرة العامة نحو الحياة. وما يتطلبه كل منهما من الحياة يجب أن يتفق مع الآخر إلى حد كبير وعندما يدير اثنان من الناس ظهورهما إلى بعض لينظرا إلى الحياة من نافذتين متعارضتين ينقطع الاتصال.

إن الحب يتطلب الانسجام. وكما يقول رودجرز، هامرشتين: إذا كنتما تضحكان على مضحكات مختلفة وتشايعان فريقين للكرة مختلفين فموعد معرفة ذلك هو قبل الزواج. فلن يشعر أحد بالوحدة والعزلة والوحشة كما يشعر الرجل المتزوج أو المرأة المتزوجة الذى تمتلئ عيناه بالعبرات لمرأى شيء يضحك منه الطرف الآخر بملء شدقيه.

وقد يعترض البعض بأن زواج العقول هذا قد يؤدى إلى السآمة والملل. أليس التباين فى القيم والثقافة أدعى لجعل الارتباط أكثر إثارة؟ إنه من الصعب تصور وجود رجل أو امرأة متزوجة تفكر بهذا الأسلوب. فلا يوجد اثنان يريان الأشياء بنفس الطريقة بالضبط. فالحياة فى أحسن صورها يمكن أن تكون مسيرة وحيدة وأحكمنا وأعظمنا تقديرًا وفهمًا يستحيل أن يكون كفئًا تمامًا لمقابلة تحديات العشرة. ويبدو لى أنه قبل أن نقبل المسئولية الخطرة والتى تعنى وضع سعادة شخص آخر فى أيدينا — يجب علينا أخذ كافة الاحتياطات لتوقى الفشل وضمان النجاح.

وقد يقول بعض القراء: «ولكن إذا طبق جميع الناس معادلتك الخاصة بالانسجام فهذا معناه الإقلال من الزواج إلى حد كبير».

ولست متأكدًا من ذلك تمام التأكُّد. ولكنى أعلم أنه سيكون هناك زيجات ناجحة أكثر، وطلاق أقل والإقلال إلى حد كبير من مرضى العيادات النفسية.

وإنى لمعجب برجال الدين الذين يرفضون أداء مراسيم الزواج دون أن يعقدوا عدة جلسات مع الخطيبين. إن هؤلاء الدعاة يريدون أن يتأكدوا أن عقدة الزواج التى يعقدونها لا تفك. فهؤلاء الرجال الذين وهبوا أنفسهم للصالح العام دائمًا مشغولون مرهقون بالعمل نظرًا للمطالب العديدة من وقتهم وطاقتهم ولكن عزاءهم أن الوقت الذى ينفقونه فى استشارات ما قبل الزواج يعنى الإقلال من الوقت الضائع فى الجحيم من أولئك الذين قد يتزوجون بغير حكمة.

(٣)

وماذا عن عدم الانسجام؟ وهل هناك وصفة عامة لعلاج هذه الشكوى؟ للأسف! ليس عندى شيء. فكل حالة هى وحدة تمثل نوعًا ويجب معالجتها مع الأخذ فى الاعتبار مطالب كل من يعنيهم أمرها من الأفراد — الزوج، الزوجة، الأقارب والأطفال. وفى حالة الشخصيات التى

لها اعتبار فى المجتمع علينا أن نأخذ هذا المجتمع فى الاعتبار أيضًا. فلا توجد هناك معادلة واحدة تحل جميع الحالات المعقدة فى المجتمع الذى نعيش فيه وما فيه من تباين واختلاف كبير.

ولكنَّ هناك نوعين من الحالات: أحدهما نوع شائع، حيث يكون الزواج على شفا التحطم فيمكن حمايته وإنقاذه وحمله لا على مجرد البقاء فقط بل البقاء والإثمار. وهذه الحالة أسميها بعدم الانسجام الزائف.

وفى هذه الحالة يكون عدم الانسجام غير حقيقى أو غير واقعى. وما يظنه كل من الطرفين أنه عدم انسجام هو ببساطة اندفاع أعمى. إنه تردد صبيانى فى النمو نحو الطرف الآخر وبه. وهذا النوع من عدم الانسجام يمكن التغلب عليه وإحلال التفاهم ورباط الحب المجزى محله. ولقد رأيت ذلك مرارًا وتكرارًا.

خذ مثلاً حالة هنرى وزوجته ليتيتيا. كانت ليتيتيا قد استشارت محاميًا، وأخبرته بقصة عدم انسجامها ودفعت له مائة دولار عربونًا وأمضت التماسًا بالطلاق.

لقد تزوجا منذ عشرة أعوام وأصبح لهما ثلاثة أطفال. وكان هنرى بسبيل بناء عمله الخاص وتكبيره، فكان ينفق فيه كل مليم يستطيع توفيره، وقامت ليتيتيا بتقديم كل مساعدة ممكنة. ويبدو أن هنرى كان أكثر اهتمامًا بعمله منه ببيته وأسرته، ولكن ليتيتيا لم تكره ذلك بصفة خاصة. وكان عندها اهتمام خاص بمستقبل هنرى. وكانت تعلم أن هنرى عندما كان طفلا صغيرًا كان أبوه يفضل إنفاق أجر الأسبوع فى شراء الكتب أو فى لوحة فى الوقت الذى كان فيه صاحب المنزل يلح فى مطالبة الأسرة بأجر الشهر الماضى، وكانت تفهم زوجها وتقدر ظروفه. ولكن الشىء الذى أثار حفيظتها وغضبها هو انتقاد هنرى لكل شىء تفعله لكى تجعل من بيتها موطنًا للجاذبية والبهجة. وهو لم يكن يعترض على عملها كمرافقة للأطفال لتكسب بعض الأجر، ولكنها لو أنفقت بعض هذا الأجر فى شراء بعض الزهور زمجر فيها لإضاعتها النقود وسخر من ذوقها الفنى.

ولكن ليتيتيا لم تقلع عن ذلك. فعندما ورثت بعض النقود أنفقت جزءًا فى شراء معدات لصناعة الخزف الفنى بالمنزل. فزاد ذلك من انفجار هنرى.

وأصيب أصغر أبنائهما بشلل الأطفال. ولم تكن الحالة خطيرة ولكن ليتيتيا أصابها المرض من القلق. فلام هنرى زوجته. وفى الصباح التالى زارت ليتيتيا محاميها وطلبت معاونته فى حصولها على الطلاق. والأسباب؟ عدم الانسجام والقسوة العقلية.

واقترح محامى ليتيتيا أن يطلبا نصيحة مستشار العلاقات الزوجية. ورضخ هنرى وهو ساخط وقال: «لو تركت هراءها الفنى واهتمت بشئونها لزالت المشاكل من بيننا».

وكان مستشار الزواج يعلم أن كل إنسان فنان بطبعه وعلى طريقته، وأن كل إنسان يحاول أن يوجد من الفوضى نظامًا وأن يبحث عن الانسجام والتوازن وأن يربط بين الأشياء التى تبدو ولا رابط بينها لكى يجعل من ترابطها شيئًا له معنى. ويمكنك أن تغطى النصف الأخير من كلمة مطبوعة ومع ذلك فما يزال فى مقدورك قراءتها. فلماذا؟ لأن عقلك يرى الأشياء كلا متكاملا يحمل إلى الإدراك معنى. وعمل الفنان أن يكمل الناقص وأن يصل ما انقطع من الدائرة وأن يجعل من بيئته ومن الكون شيئًا له معنى وأن يضفى عليها الجمال والمعنى.

ويختلف الناس فى التعبير عن نوازعهم المتباينة بطرق مختلفة حسب طبائعهم المتغيرة. فالإنسان ذو القيم الاقتصادية يرى فى عمله وتجارته شكلا وكيانًا فنيًا. والشخص الذى تكون نواحى اهتمامه اجتماعية، يرى فى انسجام الروابط والعلاقات الاجتماعية تركيبًا فنيًا. والإنسان الذى تتجه ميوله نحو العلم الطبيعى يرى فى قوانين الطبيعة تركيبا فنيا، والناس الذين تتجه ميولهم نحو الدين أو نحو النظريات يجدون فى الدين أو الفلسفة تركيبا فنيًا. وعابد اللذة الذى يجعل من إرضاء الجسد أهم شىء فى الدنيا يجعل من المتعة فنًا.

وكان هنرى. ر. يقدر الانسجام الاجتماعى، وإلا لما أفلح فى تنظيم موظفى مصنعه وجعلهم يعملون بروح الفريق. وكان يجعل للملكية شأنًا كبيرًا. فهى بالنسبة له تعنى الأمن والسلامة. ولم يكن له اهتمام خاص بالدين أو الفلسفة أو العلوم الطبيعية. وكان له ذوق فنى واضح وإن لم يكن يدرى. وإن كان مستشار الزواج يدرى، لأن هنرى أخبره بأنه يهوى التصميم فى السيارات الجديدة وفى المنتجات الصناعية من جميع الأنواع ومن ضمنها الأشياء التى كان يقوم بصنعها. ولكن عندما يكون الأمر خاصًا ببيته فهو يختار أن يتجاهل ذوقه الفنى ويخنقه لأن ما كان يعنيه فى الحقيقة وفى السر هو مسألة النفقات. فقد كان ما يزال يفكر بعقلية الطفل الفقير الصغير الذى يشترى أبوه بمكاسبه كتبًا وصورًا فى الوقت الذى تحتاج فيه أسرته إلى لوازم التموين.

هذه حالة من حالات عدم الانسجام الموهوم. وخُيِّر هنرى. ر. بين أن يفقد أسرته أو يجعل ذاته تنمو. وقد اختار أهون الشرين. وأكره نفسه على مشاركة ليتيتيا فيما تتحمس له. وبما أنه رجل أعمال مقدام. فقد درس عجلة الخزّاف التى تعمل عليها زوجته واقترح بعض التحسينات لها وقام بصنعها فى مصنعه. وخصص فى مأوى سيارته مكانًا جعلته زوجته فرشًا لحرق الخزف. وذهب معها إلى المعارض ليرى ما يعمله الخزافون الآخرون. وتعلم لغة الخزافين. ولم يمض طويل وقت حتى انفتح أمامه عالم جديد.. عالم الديكور وزخرفة المنازل من الداخل باستغلال الفنون والصناعات فى داخل المنازل. فلقد كان يغلق عينيه عن هذا العالم الساحر. والآن فقد زاد فى رحابة عقله قليلا وكان الضرر أقل بكثير مما كان يخشى.

ولقد سبق أن استعملت هذه الجملة وهى وسع أفق عقلك. وإنى أحب هذه الجملة وسأستعملها هنا، فإن جدران العقل وحدوده ليست ثابتة بل متحركة وهذه الجدران مرنة. فشدها ووسعها وستجد دائمًا مكانًا لأفكار جديدة.

ولو كان الناس الذين يعانون من المتاعب المنزلية يفعلون هذا فحسب ويكرهون أنفسهم (فى الابتداء) على الاهتمام بما يهتم به قرناؤهم لقل الحديث عن موضوع عدم الانسجام. ولتعلم الطرفان أن يتكلما لغة بعضهما. ولاستطاع الأزواج والزوجات النمو والتعلم من بعضهما. ولاستطاعا أن يكتشفا فى حبور أن الزواج مدرسة تعاونية عظيمة.

قاعدة رقم ٣

وسع أفق عقلك. إن نصف متعة الزواج تأتى من تعلم الأشياء من قرينك، فإذا استطاع الاثنان أن يتكلما لغة واحدة مشتركة كان فى ذلك نماؤهما.

(٤)

ما هو الجزء الذى يلعبه الجنس فى الزواج وفى الحب؟

فأنا كغيرى من الكثيرين الذين يبحثون عن المعرفة قرأت التقرير المنسوب إلى الدكتور كينسى، وكثيرًا غيره من كتب الجنس، وإنى أعترف أنى لم أجد لا المعرفة ولا المتعة من هذه القراءة. فمناقشة موضوع الجنس على اعتبار أن الناس مجرد حيوانات هى زيادة فى الإساءة إلى حسن نيتنا وسهولة تصديقنا. فكلنا يعلم أكثر من ذلك. ولن يحتاج الأمر إلى أن يكون الشخص عالمًا طبيعيًا أو مفكرًا عميق التفكير لكى يدرك أن السلوك الجنسى فى البشر يتأثر بالناحية الاجتماعية وبالدوافع النفسية، وكل مراهق يدرك ذلك. فالمراهقون وغيرهم يفاضلون فى عاداتهم الجنسية لأنهم ليسوا بحيوانات. إنهم بشر.

وأنا لا أشك فى صدق الدكتور كينسى وأمانته أو فى رغبته فى أن يضيف إلى التفهم الإنسانى، ولكنى أصر — ويشاركنى كثير من أطباء النفس وعلمائه — على هذه الفكرة، وهى أن الاهتمام الجبار الذى أظهره الناس بتقاريره كان نوعًا من الدعارة أو البغاء. وكان اهتمامنا أشد ما يتجه إلى هذه الاستجابة لتقاريره أكثر مما يتجه إلى اكتشافاتها نفسها. ومن كان يشك فى ذلك فليهرب من الدراسة المنظمة قليلا وليخرج قليلا إلى تلك المدرسة الكبيرة وهى شوارع المدن حيث يستطيع أن يتعلم قليلا من حقائق الحياة السديدة. وسيجد أن الذين يشترون الكتب الجنسية لا يبحثون عن المعرفة. إنهم يبحثون عن الإثارة لاتجاه نفسى منحرف نحو الجنس، عن شىء يغذى أحلامهم التى لا يجرءون على تحقيقها فى الواقع.

وإنى أذكر تقارير كينسى على أنها أحسن مثال لما أتحدث عنه. أما أحط الأمثلة من هذا النوع من الأدب فهى التى تتكلم عن الانحرافات الجنسية أو تتحدث إلى الناس عن كيف يمارسون العلاقة الجنسية (كما لو أنهم لا يعرفونها).

ولا إنكار فى أن للجنس قوامه وأنه يلعب دوره فى الزواج وفى الحب. ولكن هناك كثيرًا من الخلط حول العلاقة بين الجنس والحب. وعلى قدر استطاعتى فإننى أريد أن أبدد هذا الخلط والتشويش. وهنا أيضًا نجد أن أحسن مكان نبحث فيه عن الإجابة هو مجتمع الأزواج المتحابين. فمن الواضح أنهم يعرفون الإجابة لأنهم يعيشونها. فلكى نتعلم كيف يعيش هؤلاء المحظوظون يجب أن تكون لنا رحلة إلى حياة الأشخاص العاديين (لا المتوسطين) لكى نستكشف.

ولقد سبق أن تحدثت عن الانسجام بينهم. فماذا أيضًا؟ وماذا عن النواحى الجسدية لعلاقاتهم؟

فالمحبون السعداء يحبون أجسادهم وأجساد من اقترنوا بهم. وقد حدثتنى إحدى السيدات فقالت: «إننى أهوى النظر إلى نفسى فى مرآة فى طولى حينما أكون عارية وأظل أتعجب كيف أبدع الله شيئًا جميلا كهذا». كلا، إنها لم تكن نموذجًا لعرض الأزياء بل كانت امرأة طولها ١٥٥سم بذراعين ورجلين قويتين وصدر عريض عميق، إنها لم تقتصر على «تقبل» نفسها. إنها كانت تحب تكوين جسمها. وفضلا عن ذلك فإن المرء لا يستطيع أن يفعل الكثير بالنسبة لبنيان جسمه وتركيبه سوى أن ينعم به ويبتهج.

وقد يسميها بعض علماء التحليل النفسى «نرجسية (أى عشق الذات)» ولكن مثل هذا التشخيص يبدو لى أنه ينبع من ميل لتفسير الأوضاع العادية فى ضوء الأوضاع المرضية الشاذة على حين أن منطق العلم الطبيعى كان يقتضى العكس.

فإن الاتجاه النفسى الطبيعى أو الحالة النفسية الصحيحة السليمة نحو جسم الإنسان هى الحب. وقد حدثتنى امرأة عادية (ولكنها متوسطة) فقالت: «إننى سعيدة بأننى خلقت امرأة ولم أكن رجلا. إنه شىء رائع أن ينمو بداخل جسم الإنسان طفل وأن يولد ثم تحمله بين ذراعيك وتحدق فيه وترعاه. إنه رضا قد حرمتم منه أنتم معشر الرجال. إننى أرثى لزوجى البائس، إنه يشقى ليعولنا أنا والأطفال ثم يكون لنا فقط كل المتعة. إننى أشعر أننى مهما بذلت من أجل راحته وإسعاده فلن أفيه حقه».

إن من دواعى سرورى أن أستطيع أن أنقل إليك وجهة النظر هذه، إنها من تلك الأشياء التى لن تقرأ عنها أبدًا فى الجرائد. وإننى سعيد لأن هناك شيئًا يعيد الثقة فى إدراك أنه ليس هناك شىء يسترعى النظر فيما هو طبيعى عادى. فما هو السلوك الجنسى الطبيعى؟ إن الدارسين للطبيعة البشرية، وللسلالات البشرية، وعلماء الاجتماع وعلماء النفس وطب النفس قد

جمعوا من المعلومات قدرًا هائلا محصلتها جميعًا ثلاث حقائق بسيطة هى: أن الجنس لذيذ، وأن الجنس ينتج النسل، وأن الجنس طريقة لزيادة الترابط والشعور بالاندماج فى كيان واحد يظمأ إليه المحبون الحقيقيون. إن كلمات الكتاب المقدس الأنيقة ولكنها دقيقة تصف العلاقة الجنسية بأنها معرفة عن طريق الجسد، وهى نوع من الاتصال غير اللفظى الذى يجعل للرابطة الزوجية كيانها الخاص الشخصى الرقيق. فإذا تقدس بالزواج وأقرها المجتمع تبعًا لذلك فإن العلاقة الجنسية تصل إلى مستواها الطبيعى العادى من حيث إنها تحقق معًا الأهداف الثلاثة المذكورة.

وهذا التعريف يساعدنا فى أن نفهم كيف أن المحبين السعداء فى مقدورهم أن يستفيدوا من روابطهم الزوجية إلى آخر مدى. فهم ليسوا فى حاجة إلى السرية والاستتار. لأن كلا منهما يعتمد على الآخر فى الفهم والمعاونة. أما مع الأغراب فلابد من شىء من التصنع أما مع بعضهما فلا. إنهم ينحون الحواجز ويسترخون.

وفى الوقت نفسه يحترم كلاهما خصوصيات الآخر. فكل إنسان فى حاجة إلى الوحدة. والمحبون السعداء يدركون ذلك ويحسون دون أن يخبرهم أحد متى يمتنع التدخل، ومتى يمتنع إلقاء الأسئلة ومتى يصح الصمت.

والجزاء على الثقة المتبادلة والاهتمام بالطرف الآخر هو التلقائية فى العلاقات الجنسية. إنه أمر طبيعى ألا يشغل الإنسان باله باستمرار بالجنس، ومن الطبيعى أن كل محب يطلب المتعة فى إدراك أنه يساهم فى إسعاد أليفه. إنه ليس جامدًا متبلد الشعور يعنيه فقط أمر إشباع نفسه ولا يشعر بالزهو بعدد المرات التى استطاع فيها أن يهز مشاعر زوجته الجنسية. فهذا الاتجاه الآلى نحو الجنس هو أسوأ النتائج من قراءة كتب الجنس التى سبقت الإشارة إليها قبلا. إنها من الأمور المؤذية للسيدة أن تضطر للشعور بالإثم إذا لم تكن كل استجابتها تصل إلى غاية النشوة. إن اضطرار الزوجة لأن تستجيب وفقًا لفكرة مسبقة هو أبعد ما يكون على التقدير والاهتمام بمشاعرها.

وتحدثنى إحدى مريضاتى أن زوجها يتأوه فى ضجر إذا لم تبد غاية النشوة مع كل اختلاط جنسى. وهو ينعى بقوله «ليس فى خير». ومع ذلك فهو فى أوقات أخرى لا يكترث لمشاعرها بالمرة. وهو ينتقدها باستمرار ويهينها أمام الناس ولا يبدى تقديرًا لأى شىء تفعله. وقصتها تؤيدها عبارة وردت فى خطاب كتبته إلى سيدة تحاول أن تحل موقفًا صعبًا جدًا فى زواجها. وقد كتبت تقول: «إننى عندما أقرأ كتاب كينسى أفكر كيف أنه نسى تمامًا أهم جزء فى تفسير الحياة الجنسية للمرأة، وهى أنها تبدأ على مائدة الإفطار».

إن هزة الجماع لا يمكن أبدًا أن تكون اختبارًا للنجاح فى الزواج أو فى الحب، وإن الرجل الذى يشعر بالقلق إزاءها إنما يسبب لنفسه ولزوجته قلقًا لا موجب له. ومع ذلك فهذا حق وهو أن السبب فى برود بعض السيدات جنسيًا وفى تصور بعض الرجال يرجع إلى خطأ فى حياة الحب الزوجية. إن الناس الذين يقلقون من ناحية التواؤم الجنسى مثل زارع الحديقة الذى يجعل جذور نباتاته تذوى من قلة الماء والتغذية ثم يقلق بعد ذلك من أن بعض الأوراق قد اصفرت. فدع المحبين يهتمان فى إخلاص بسعادة وتقدم ونجاح الأليف وستعفى بعد ذلك ناحية المواءمة الجنسية بنفسها.

ومهما كانت ناحية المواءمة الجنسية فإنها تختلف بين الأزواج كما أنها تتغير مع الزمن وستصبح شيئًا قليل الأهمية بالنسبة لحياة حبهما مجتمعة.

قاعدة رقم ٤

إن الاهتمام المتبادل بسعادة الطرف الآخر بكاملها من شأنه أن يؤدى إلى علاقات جنسية مرضية.

فلا تضع العربة أمام الحصان. ولا تضع الإرضاء الجنسى قبل الإرضاء الكامل فى الرابطة الزوجية، وإلا فقدت الاثنين.

إن المواءمة الجنسية الطيبة لا تأتى قبلاً بل تأتى بعد المواءمة الشخصية السعيدة.

(٥)

وجدت من تجاربى أن الناس المتزوجين يرتكبون خطأين هما أشد الأخطاء التى تسمم مورد الحب. أولهما: التطوع بالنقد. والخطأ الثانى: هو تفسير سلوك الطرف الآخر فى ضوء دوافعه.

ولقد قال أحدهم: إن قبر الحب يحفر بضربات صغيرة. إن متسقطى الأخطاء لا يحبهم أحد. وإن من الأقوم كثيرًا أن تبحث عن الأشياء الطيبة فى الطرف الآخر وبعد ذلك تهيىء لها الظروف المادية والجو العاطفى الذى يساعدها على النماء. إنك لا تستطيع مقاومة الشخص الذى يتميز فيك أطيب خلالك ويشجعها حتى تتحقق فعلا وواقعًا. فإذا أردت من أحد أن يحبك فهذا هو الطريق..

أما مسألة البحث عن دوافع الغير فهذا أمر يكرهه كل فرد.

ولقد قال المستر ويليامز:

○ لقد أخذت كل ما أريد أخذه. لقد وصلت إليه. إننى لا أريد شيئًا يؤذى جلاديس. ولكنى لا أريد شيئًا أكثر من ذلك. إننى أريد الطلاق.

وكان المستر ويليامز رجلاً نحيفًا وقد ساعدت عويناته السميكة على إبراز عينيه الزرقاوين. وكانت شفته السفلى وذقنه ترتعشان وهو يتكلم. ثم استطرد:

○ إنها تذهب للطبيب النفسى منذ عام. ولقد ذهبت إليه فى هذا الأمر ولكنه قال لى: إنه لم يتولّ أبدًا علاج شخصين من نفس الأسرة. ولذا فأنا أطلب نصيحتك، إنها تكاد تصيبنى بالجنون. إن كل ما تفعله أن تقوم بتحليلى نفسانيًّا.

ثم توقف ولم يطل انتظارى حتى استطرد قائلاً:

○ إنها دائمًا تفسرنى لنفسى. وفى الليلة الماضية نسيت مظلتى بينما كنا نغادر منزل شريكى. واضطررنا أن نرجع ثانية لأخذها. وبينما كنا فى السيارة فى طريقنا إلى منزلنا، شرعت جلاديس فى تفسير نسيانى لتلك المظلة اللعينة فقالت: إن المظلة رمز على عضو التذكير وإننى بغير وعى أحن لإيجاد علاقة مع زوجة شريكى. وأنا لا أريد أى علاقة مع أى زوجة. فإذا تخلصت من هذا الإشكال فلن أنظر فى وجه امرأة أبدًا.

فعلقت على قوله:

○ يبدو أن تفسيراتها قد ضايقتك وأثارت الاضطراب فى نفسك.

○ ليست هذه الحادثة بالذات، فكل تحليلاتها تثير الاضطراب فى نفسى. وأقول لك الحق إن زوجة شريكى طولها ست أقدام (١٨٠ سم) ومعروقة كعود الحطب وآخر امرأة فى العالم يمكن أن تكون ذات جاذبية خاصة لى. وهذا ما جعلنى أضحك.

والواقع هو أننى تقريبًا لا أحمل مظلة ما وأن جلاديس هى التى أصرت على أن آخذ واحدة معى. فالدنيا تبدو على وشك الإمطار وأنها كانت تلبس قبعتها الجديدة. وعندما خرجنا من منزل شريكى كانت النجوم تتلألأ فنسيت كل شىء عن المظلة. فإن حملى لها كان من بنات أفكار زوجتى، ولكن ليس هذا هو المقصود. إنما المقصود هو أن تحليلها النفسى الدائم لى يجعلنى أشك فى بواعثى الخاصة. إنه يدمر ثقتى بنفسى. فإذا تخلصت من جلاديس فلن تفعل معى ذلك امرأة قط فى الدنيا كلها.

إن حالة السيد ويليامز ليست حالة متفردة. ففى هذه الأيام المليئة بالاضطراب وفى الوقت الذى يحاول الناس عبثًا أن يجدوا جوابًا لمشاكلهم العاطفية يذهب ملايين الرجال والنساء إلى استشارة أطباء النفس. وعلماء النفس. وكل الناس الأذكياء يبحثون عن أجوبة تتسم بالذكاء.

وهذا ما يجعل الأمر كما قال الشاعر بوب: «إن الدراسة المناسبة للبشرية هى الإنسان» ولكن بوب قال أيضًا: «إن المعرفة القليلة شيء خطر».

وتثور المشاكل عندما يحاول الناس أن يطبقوا على الغير الأجوبة التى وصلوا إليها فى نفوسهم. إن علم النفس شيء مفيد إذا استغل فى زيادة حياة الإنسان غنى وثراء. وإنه من سوء التطبيق أن يستعمل كعصا للإساءة إلى القرين والأصدقاء.

وبينما كان المستر ويليامز معى فى العيادة اتصلت تليفونيًّا بالطبيب النفسى لجلاديس وشرحت له الموقف فقال: «سأحل الموضوع». والظاهر أنه فعل لأن المستر ويليامز لم يطلب بعدها الطلاق أبدًا.

ما الذى يدفع بعض الناس إلى التدخل فى شئون الغير لمعرفة دوافعهم بدل محاولة تفهمهم لدوافع أنفسهم؟ «وإننى أقول له ذلك لمصلحته» وهذا ما يبررون به عملهم. ألم يكن من الأفضل لهؤلاء الخيرين أن يساعدوا الغير بضرب المثل الطيب بأنفسهم وجعلها أسوة حسنة؟ وخصوصًا فيما يتعلق بالمثل الطيب بعدم التدخل فيما لا يعنيه.

وهناك سببان لعدم تشخيص الدوافع «الحقيقية» للناس، أولا: لأنهم لا يحبون أن تحلل دوافعهم، وثانيًا: لأنه من المستحيل حتى على الخبراء أن يفهموا تمامًا لماذا يتصرف شخص ما بالصورة التى يتصرف بها.

فجونى – وعمره عشر سنوات – يهاجم ثلاجة المنزل ويأكل الدجاج المثلج الذى استبقته أمه للعشاء. فماذا كانت دوافعه؟ ربما كان جائعًا. وربما أكل الدجاج ليعبر عن عدائه لوالدته أو لوالده أو لعضو آخر فى الأسرة. وربما كان يخطط للهرب من المنزل وأراد أن يملأ بطنه قبل أن يبدأ المغامرة. أو ربما كان ضجرًا فحسب فأكل الدجاج لأنه لم يجد شيئًا آخر يفعله.

فهناك شيء واحد فقط يمكن التأكد منه وهو أن جونى هاجم الثلاجة وأكل الدجاج، ففى استطاعتنا أن نرى السلوك، أما الدوافع فيجب استنتاجها. والدافع إنما هو شرح أو تفسير للسلوك. والناس تفعل ما تفعل لأسباب كثيرة بعضها واضح وبعضها مستور غامض. وقد يحاولون أن يسموا الأسباب أو على حد تعبيرهم يوضحوا دوافعهم. من هذه الناحية فتأكد أن توضيحاتهم لا تقول كل شيء.

إن لنا كثيرًا من الدوافع لكل شيء نفعله وإننا على جهل تام بأغلبها. ولكن كل إنسان يعتبر أعظم حجة عالمية فى موضوع واحد وهو الطريقة التى يحس بها ويشعر. فليكن إذًا حريصًا عند شرحه «لدوافعه» وأن يضاعف هذا الحرص عند تحليل دوافع الغير. إن موضوعًا واحدًا يستطيع أن يكون له فيه شجاعة الأسد وهو مشاعره الخاصة.

فكر فى أغنية من التى تحب سماعها واسأل نفسك لماذا تحبها. فربما استطعت أن تقدم اثنى عشر سببًا لذلك. أما السبب الحقيقى الواقعى فهو هذا فحسب. إنك تحب الإحساس الذى يخامرك وأنت تنصت إليها. فهذا السبب لا يستطيع أحد أن يجادلك فيه ولا يحتاج إلى أى دفاع. إنه السبب المبرر لحياتك. إن الناصح أو المستشار غير المدرب الذى يحاول أن يجعلك تشعر بعدم الاطمئنان بالنسبة لمشاعرك الحقيقية الصادقة إنما يحاول سواء كان يدرى أم لا يدرى أن يقوض حياتك.

وأنت حينما تنتقد قرينك باستمرار «وتفسر» دوافعه فأنت تحاول أن تقوض زواجك. فلماذا تقوض حياتك الخاصة؟

إن الحب بين الجنسين مثل التناسل نفسه، شىء خلاق. فهما روحان تخصب إحداهما الأخرى. وكل منهما تفك عقال الطاقات الكامنة فى الأخرى وتطلقها حرة. وإن الحب، كما قلت قبلا هو حاجة ومطلب، هو مطلب للنمو عن طريق العطاء ومطلب للنمو عن طريق الأخذ والتلقى، ولا توجد هناك قوة قادرة أقوى من الحب على أن تزيد فى شحنة الحماس للحياة وفى رغبة المرء أن يفعل شيئًا له أهميته، وفى إقدام الإنسان على أن يحلم بأقوى وأجرأ أحلامه ومطامعه.

وإنه عمل يرضى أن تفعل شيئًا لذاتك. أما إذا فعلته من أجل من تحب فإنه أمر يهز العواطف.

كيف يعرف الحب؟ لقد عرفت الحب فى عبارات التصرف والعمل فى الأشياء التى يفعلها المحبون. وهذا يشمل تسعة أعشار السلوك الجنسى للذكر والأنثى، الذى رأى الدكتور كينسى أنه من الأوفق أن يستبعده من أبحاثه و «تقاريره».

إن الحب معناه أن ترى الألوان المعتمة وقد تحولت فجأة فصارت شفافة وما كان باهت اللون منها أصبح يبرق ويضىء ويتلألأ.

□□□